جبٌ ضدّ نفسه

قصة بقلم عبد الرحمن البيك

تواترت الانباء ذات يوم ، ان فوزي سيرتكب جريمة قتل لا محالة .

فالذين شاهدوه ، وهو غاضب حاقد على هذا المجتمع ، أيقنوا بأنه مصمم على اداء مهمته التي كان معظم الناس يعتقدون بأن الله لم يخلقه الا لادائها .

وبمناسبة هذه الجريمة ، التي أخذ الناس يتوقعون حدوثها بين آونة واخرى ، كثر الحديث عن سيرة فوزي في الاجرام ، بحيث ان الشرثرة أعادت للاذهان صورة آخر جريمة ارتكبها .

ومما قيل عن تلك الجريمة النكراء ان فوزي ـ وكان اسمه وقتئذ أبا الفوز ـ قد اعتدى على رجل مسكين يقوم على وزن السكر في احد المراكز العامة . وهذا يعني بالطبع ان الحادث يعود الى ايام توزيع السكر بالبطاقات . كانت تلك الايام عصيبة بلا شك ، فالوطن كان يحبو في ارتعاش ، محاولا اختطاف استقلاله من ايدي المستعمرين .

وتفصيل ذلك الحادث الاليم ، الذي أقشعرت له الابدان آنئذ ، سهل ويسير ، اذ ان الجميع يذكرون بأن أبا الفوز قدم مركز التوزيع ، وبيده كيس فارغ ، فركل برجله باب المركز ، بعد ان شق طريقه في زحمة الناس ، فهوى الباب على رأس الوزان مما أدى الى اغمائه .

وازاء ذلك الموقف ، قام من قام ثارا للوزان ، فظن أبو الفوز ، ان كتلة بشرية داهمته وقامت ضده ، وهذه الكتلة ـ كما خيل اليه وقتئذ ـ انما كانت تتحين مثل تلك الفرصة للايقاع به ، فما كان منه الا واستل خنجرا ـ ذا قبضة فضية ـ فاغمده في صدر احد الحمالين ، ثم تراجع هاربا ، وهو يلوح بخنجره في الهواء يمنة ويسرة ، لتوسيع رقعة الميدان بينه وبين من قد يخطر له مجابهته .

ومما تناقلته الالسن ، خلال الاسبوع الاول لارتكاب الجريمة ، ان ابا الفوز كان قد تزوج ، قبل قتله الحمال ، بستة ايام فحزن الناس على مصير الزوجة . ولكن أبا الفوز طمأن المجتمع الى ان مصيره لن يكون السجون ، اذ ان نظريته تقول بانه من العسير على رجال الامن ايقاعه في شراكهم .

غير ان شيئا واحدا غاب عن ذهن ابي الفوز ، وهو انه اصبح يعيش خلال الاشهر القليلة التي اعقبت ارتكاب الجريمة ، في ظل حكم وطني نزيه ، ففرنسا وقتئذ كانت تحزم امتعتها لتخرج الى غير رجعة . فلم يعد هناك من يطلق سراحه ، كما انه لم يعد هناك من يلقنه فن الاجرام ويدفعه الى نشر الذعر والفوضى بين السكان .

ولقد كان عقلاء الناس ، يخاطبونه آنئذ باسم الدين والفضيلة ، ان يكف عن اتيان تلك المعاصي المحرمة ، الا انه لم يكن يحفل بآرائهم ، لانه كان يعتبر نفسه (قبضاي الحارة) مهمته تعليم الناشئة (الرجولية والمعكدة) .

ولكن(قبضايات الحارات) غاب عن اذهانهم وقتئذ ، انهم كانوا يخدمون الاستعمار لان الاستعمار دأب على تشويه حقيقة هذا المجتمع ، تبريرا لانتدابه امام عصبة الامم . وكانت عصبة الامم ـ من ناحيتها ايضا ـ تتخيل ان جميع السكان هم من امثال ابي الفوز . فكانت تمضي الصكوك، وتولي امور الامم لامم أخرى ، ثم تقطع الوعود بالحرية متى انتهت اليها تقارير تشعرها بتحسن الحالة .

هذا ما جرى منذ اكثر من عشر سنوات . وقد قضى أبو الفوز تلك المدة في السجن ، وهو يحسب ان من حقه ان يقضيها خارج جدران السجن ، متنقلا بين الكروم تارة ، وبين اصحابه الخلص تارة اخرى ، لان من صفات الشجعان ان يشقوا عصا الطاعة ما استطاعوا ، وان لا يستسلموا لحفنة من (الافندية) . ولان الموضوع ينتهي عادة بحل بسيط ، وهو قيام احد وجهاء الحي بمساع لدى الكابتن شفاليه ، حيث يطلق سراحه سريعا .

أما الان ، وبعد مضي اكثر من عشرة اعوام على قتل الحمال وطرح الوزان ، لم يجد ابو الفوز مبررا لارتكاب اية جريمة ـ عدا عن هذه الجريمة التي ازمع ارتكابها اثر تضافر عناصر قهرية ـ فبعد ان قضى ابو الفوز ما يقرب من ثلاث عشرة سنة في السجن ، خرج فاذا هو في بلاد جديدة .. بلاد فيها معامل ومداخن تناطح السحاب ، وفيها اسواق مزدهرة ، وفيها اراض خصبة تحرثها محاريث حديثة . ومحاولات للمحافظة على تراث البلاد الاخلاقي والفني. ثم وجد الى جانب ذلك ولده عبد الرؤوف الذي تربى بعيدا عنه ، فكان له في مخيلته اجمل صورة ، وكان يراسله من سجنه ويتعرف على آرائه .

كل هذا جعله يشعر بالميل نحو حياة هادئة جديدة ـ وهذا بالطبع قبل ان يقرر ارتكاب الجريمة التي تواترت الانباء بشأنها ..

غير ان الشيء الذي اعترض سبيله ، هو مسلك ابنه عبد الرؤوف ، فقد اعتاد هذا ارتياد ملهى الطاحونة الحمراء ، مما أفزع الاب ، لخوفه عليه من اصحاب السوء ـ وهو الخبير بشئونهم ـ فلما أراد ان يحول بينه وبين ارتياده الملهى ، فشل فشلا ذريعا ، ووجد نفسه للمرة الاولى لا ينتصر في أمر .

وقد اصبحت الام ـ بعد ان غاب عنها زوجها فوزي اكثر من عشر سنوات ـ تخدم في البيوت ، فتقد ما تجنيه يداها اللتان تغضنتا قبل الاوان ، الى ابنها رؤوف ـ وهذا هو الاسم المحبب لديها ـ فيذهب رؤوف ويقدم ما جنت يدا امه الى غانية ، يعتقد انها فرنسية ايضا .

وفي ذات ليلة قرر ابو الفوز ، اقتفاء أثر ابنه ففعل ، واذا به يجد نفسه في ملهى مثير .. ثم اذا به بعد عدة ليال يجد نفسه بين اصحابه القدامى حول مائدة لها في ذاكرته مكان محترم . فتعلق بغانية شقراء ، الا ان الغانية الشقراء لم تتعلق به لفلظ في شفتيه ، وقبح في باقي قسمات وجهه .

وأبو الفوز ، كما هو معلوم ، كان له ـ فيما مضى من ايام ـ رأي نافذ وكلمة مسموعة . كان اذا رغب شيئا ناله ، واذا طلب شيئا حظي به . فكيف به الان وقد عجمت السجون عوده ؟ . ثم كيف بتلك الخليعة تتجرا على مجافاته ؟ ثم كيف بذلك الشاب الذي كان يجالسها في زاوية تحجبها

أغصان اشجار مختلفة ، بحيث لا يراها أحد من النظارة . كيف لا يتنازل له عن تلك الغانية ، مع انه أرسل اليه نذيرا ووعيدا .

من اجل هذا تواترت الانباء ، بصورة سريعة عن ازماع فوزي على ارتكاب جريمة .

على انه قبل ارتكاب تلك الجريمة التي رسم لها الخطة ، وافته جماعة رجال الدين ، شرحوا له ما في القتل من مضرة اجتماعية ، فلم يقتنع ، ثم اوردوا له الايات القرآنية الزاجرة ، فلم يرتدع، بل خاطبهم قائلا : « ان القتلة قوم صالحون .. انتم لا تعرفون ما في نفوسهم من حب للانسانية اما رايتم رجلا يشذب بالمقص اطراف الاغصان الناتئة ؟ أما رايتم رجلا ينظف الشوارع ؟ ان القتلة هم بالذات اولئك المشذبون والمنظفون ، ولولاهم لتفاقمت الرذائل واشتط بعض الناس على بعضهم الاخر ... ان جميع النماذج البشرية التي قتلتها انما كانت تستحق القتل .. وهكذا تفعل الامم مع بعضها .. الا ترون ..» .

فكذب أحدهم دعواه قائلا : « هذا هراء ، انما انت تحاول تبرير دوافعك للقتل لا أكثر ، فما انت الا رجل من طراز قديم .. رجل سخرك الاستعمار لبث روح الفوضى في هذا المجتمع ، بغية تحطيم عقائده ، الا ترى انهم يقولون اننا متأخرون متوحشون .. المرأة عندنا متحجبة ، وهي بلا مكانة ولا حقوق ، والعائلة بأسرها تتخبط في لجة من الجهل والظلام ، والناس في الاسواق يطعنون ظهور بعضهم بخناجر ذات رؤوس مدببة . ان الرسام الاستعماري جعل من امثالك يا ابا الفوز ريشة ، واتخذ من عقائده الدينية ألوانه المائية ، وجعل مواضيع اللوحات أفعالا شائنة ، ينكرها الدين ويستقبحها العرض ، ثم عرض تلك اللوحات امام الرأي العالمي ، ففاز فيما اجتهد ، ونجح فيما سعى . ألا تذكر يوم قتلت الحاج عمر ، كيف ان الكابتن (شفاليه) سعى الى تخليصك ؟ ثم الا تذكر موقفك المخزي من مظاهرات سنة الف وتسعمائة واربع واربعين ، حينما طلب منه شفاليه عرقلة الاجتماعات الشعبية ، والدس بين الفئات الثورية التي كانت تتجمع كل مساء للانقضاض على الثكنات الحربية الفرنسية .. ان هذه التصرفات كانت ثمن تخليصك من القصاص .. والان .. انك ترى ان كل شيء قد تغير ، فلماذا لم تبدل من اجتهادك الاجرامي .. اذهب وفتش في كل مكان، ترى اننا نحث الخطا نحو النصر ، واذهب لترى ان الاسواق هادئة ، فليس هناك أحد يطعن الاخر من الخلف ، كما يزعمون ، اننا نبرهن للانسانية عن صدق طبيعتنا فلا تقم ضدها ، لانك ان فعلت فانما تقوم ضد نفسك . »

لم يأبه ابو الفوز لاقوال رجال الدين بل حمل نفسه نحو ملهى الطاحونة الحمراء ، ليقتل ذلك الشاب المجهول الذي لم يتنازل عن الغانية رغم النذير والوعيد .

عند المدخل ، استل خنجرا ، ذا قبضة ، فذعر الناس وتفرقوا ، ومنهم من توارى خلف الكراسي والجدران وجثم صمت رهيب ، تقدم خلاله أبو الفوز ، خطوات ويئدة راسخة ، حتى اقترب من غريمه المختبيء في زاوية تحجبها اغصان اشجار مدلاة ، فلما اراد ان يغمد الخنجر في صدر ذلك الغريم ، تبين فيه على حين غرة ابنه عبد الرؤوف . فخارت قواه فجاة ، وارتجفت فرائصه ، ثم وقع على الارض عاجزا عن حمل نفسه .

عندئذ قام عبد الرؤوف من مكانه فحمل والده بين ذراعيه ، ثم مضى به الى البيت وهو يقول :

« كلا يا ابتاه !! .. لن يفرق بيننا الاستعمار الجديد ، كما كان يفرق بينك وبين المجتمع .»

حلب — عبد الرحمن البيك

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني

بيروت شارع سوريا ص.ب. ٣١٧٦ تلفون ٢٧٩٨٣

تاريخ العلامة

ابن خلدون

يسر دار الكتاب اللبناني ان تزف البشرى الهامة الى جميع وزارات التربية والتعليم وجميع المؤسسات الثقافية في البلدان العربية :

انها تعلن عن قرب انتهاء طبع الموسوعة الكبرى للعلامة ابن خلدون ، وقد انتهت الان من طبع المجلد الخامس ، وقريبا جدا ينتهي طبع المجلد السادس ، ثم يتبعه المجلد السابع . ان دارنا اذ تلفت أنظار جميع هذه المؤسسات وجميع الادباء والعلماء في الاقطار العربية ان ثمن المجموعة الآن مئة وعشر ليرات لبنانية تحث من يهمه أمر اقتناء هذه الموسوعة على الاسراع بحجز مجموعته ، اما عن طريق الناشر رأسا او بواسطة المكتبات الكبرى في العالم العربي ، مع العلم بان ثمن المجموعة الكاملة سوف تصبح عند انتهاء الطبع ، اي بعد مضي ثلاثة اشهر ، مائتين وعشرين ليرة لبنانية .

هذا وقد صدر حتى الآن خمسة وعشرون جزءا، ولم يبق الا ثمانية اجزاء فقط ، ونلفت نظركم ايضا الى الفهارس العلمية الهامة والى ان النسخ محدودة . فبادروا الى اقتناء نسخكم .